ويتحاشون الاتصال بالادارة المحلية». وجاء، في التقرير، أيضاً: «انه لا يمكن طبعاً ازالة المؤسسات الاسرائيلية كافة... لكن المغزى الرمزي لهذا العمل ذو شأن عظيم. انها ذهنية الاعتماد على الذات التي تمّ خلقها على هذا النحو. وثمّة شعور بالتحرّر النفسي يُخلق الآن. وفي المدى البعيد، تؤدي هذه العملية الى ترسيخ روح الوحدة والمصير الوطني والثقة بالنفس بين الأهالي. لقد استلم الفلسطينيون المسؤولية في حقل التعليم، والبرامج الصحية، وبرامج الرفاه الاجتماعي. وهناك تنظيم لميليشيات للشبان. كما يعرف جميع الشبان الى أي جهة ينتمون»[٢٨].

اعادة تكوين شاملة

جدير بالذكر، في هذا المقام، ان عمليات اعادة التأطير والتكوين في المجتمع المدني الفلسطيني قد تجاوزت حدود الضفة والقطاع المحتلين منذ العام ١٩٦٧، لتمتد الى المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال منذ العام ١٩٤٨. وهذه شريحة أصلية من الشعب الفلسطيني، خضعت، بين ليلة وضحاها، لظروف من العزل عن مجتمعها الأصيل، وعانت، أيّما معاناة، من فقدان الأطر والابنية الذاتية المعبّرة عن شخصيتها العربية الفلسطينية. وبين شخصيتها وعمقها الحضاري، من جهة، والمواطنة الاسرائيلية التي فرضتها عليها الوقائع التي تلت عام النكبة الفلسطينية، من جهة أخرى، افتقدت هذه الشريحة للقيادات الحزبية والصحافية والنقابية وحتى الدينية المنتمية اليها. وقد ظلّت هذه الشريحة تعيش، على حدّ تعبير مسؤول اسرائيلي، كـ «جسد بلا رأس» بعد هجرة النخبة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية[٢٩].

لقد تعامل المسؤولون الاسرائيليون مع هذه الشريحة بخفّة وازدراء، وأخضعوها لحكم عنصري أساسه الاحكام العسكرية، لعقدين من السنين، ولقوانين الطوارىء القمعية حتى الوقت الحاضر. وفي ظل هذه الأجواء، تمزق «عرب ١٩٤٨» بين النظرة الاسرائيلية اليهم كطابور خامس محتمل في أيّة لحظة، وبين الاهمال وعدم الاكتراث العربي مطوّلاً.

غير ان حقائق الجغرافيا والاجتماع والتاريخ فرضت ذاتها. وفي ظروف بالغة القسوة، أخذت هذه الشريحة تعيد تكوينها الذاتي، اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً، ثمّ سياسياً. ودون ضجة، بدأ ينمو «رأس» لهذا «الجسد»، إنْ صحّ التعبير. وفي تزامن مع تطوّر المجتمع المدني الفلسطيني، خارج حدود ١٩٤٨، استطاعت الأجيال الجديدة، ومنذ منتصف السبعينات بخاصة، ان تصوغ أبنيتها ومؤسساتها الخاصة، مراعية، في ذلك، وبذكاء بالغ، خبرة تجارب سابقة لم يكتب لها النجاح، بفعل القهر الاسرائيلي.

بدأ الفلسطينيون في الاراضي المحتلة العام ١٩٤٨ في تكوين مؤسسات، بهدف متابعة موضوعات بعينها، ومصالح محدّدة، لكنهم وصلوا، في ظل أجواء الانتفاضة، في نهاية الثمانينات، الى تكوين مؤسسات جامعة؛ بل وأعلن بين ظهرانيهم عن تشكيل أول حزب سياسي (الحزب العربي الديمقراطي، بقيادة عبد الوهاب دراوشة). ومن بين الأبنية التي اكتسبت أهلية اجتماعية واقتصادية، نجد «جمعية المبادرة الاسلامية» التي تسهر على شؤون المقدّسات والاوقاف الاسلامية داخل اسرائيل، و«لجنة رؤساء السلطات المحلية العربية» التي تتابع مختلف مصالح الأقلية العربية، حتى أطلق عليها البعض «برلمان» «عرب اسرائيل»، و«اللجنة القطرية للطلاب العرب»، و«اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي العربية»، و«لجنة الاربعين» التي تناضل من أجل انقاذ القرى العربية المهدّدة بالزوال، بفعل سياسة اسرائيل الاستيطانية. وثمّة تنظيمات أخرى تتبلور يوماً بعد يوم. وغالبية هذه الابنية